أثر الرحلة في الحياة العلمية والادبية (١)

يكثر الراحلون من بلاد إلى اخرى ، والغاية من هذه المحاضرة النظر في رحلات أهل العلم والادب لنعرف كيف يكون للرحلة أثر عظيم في ترقية العلوم والآداب ، وتهذيب النفوس وإصلاح حال الاجتماع .

ولعل قائلاً يقول : إن فائدة الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم وتفاوت طبقاتهم فهي من المعلومات الموضوعة على ظاهر اليد ، والحديث عنها صرف للوقت في غير جدوى فأقول : إني في شك من هذا ، فإن كثيراً ممن وهبهم الله القدرة على الرحلة وهيأ لهم وسائلها لا يقبلون عليها وينصرفون عنها ، انصرافهم عن الاشياء التي يرونها خالية من كل فائدة .

على أني أريد التنبيه لما في الرحلة من آثار صالحة لأضعها أمام نشئنا حتى إذا خطر لهم ما في الرحلة من حرج وعناء نظر الى هذه الآثار الحميدة ، فيخف وزن تلك المتاعب وتذهب في جانب هذه الآثار هباءً .

الرحلة في نظر الإسلام

لم يدع الإسلام وسيلة من وسائل الرقي ، إلا نبه عليها وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه في الرحلة فقد دعا إليها راميا إلى أغراض سامية ، مثل طلب العلم قال تعالى : فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا

(١) عنوان المحاضرة الممتعة التي ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي العلامة السيد محمد الخضر حسين عضو المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي المصري والاستاذ في كلية أصول الدين بالازهر، وذلك في ٤ جمادى الآخرة ١٣٥٦ الموافق ليوم ١١ آب ١٩٣٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون . ويلحق بالتفقه في الدين كل علم يعد من وسائل الرسوخ في علوم الدين كالنحو والبلاغة ، بل يلحق بالتفقه في الدين كل علم يكسب الأمة قوة ويكون له أثر في نجاحها والاحتفاظ بعزتها كفن صناعة الغواصات والطيارات .

ومن هذه الأغراض أخذ العبرة من أحوال الأمم الماضية ، قال تعالى : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، ويلحق بأحوال الامم الماضية أحوال الامم الحاضرة متى كان في النظر اليها عبرة ينتفع بها في الوصول الى سعادة الحياة ، ومن هذه الأغراض الرحلة من دار الضلال والبغي الى دار الهداية والعدل ، قال تعالى : ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . هذه الآية وردت في قوم كانوا يقيمون في دار عسف وغواية فحرضهم على الرحلة إلى المدينة حيث يشدون أزر المسلمين ويقفون في صفوفهم ويكثرون عددهم ، واذا تشابهت البلاد في الاستخفاف بأمور الدين فعلى العالم المصلح أن يجاهد في سبيل الدعوة الى الحق والإصلاح بقدر ما يجد من حرية القول أينما كان .

ومن فرائض الاسلام ما لا يؤدى إلا بوسيلة الرحلة وهو حج البيت الحرام ، وفي الرحلة الى الحجاز في أشهر الحج جانب عظيم من معنى التجول في أقطار مختلفة ، حيث يلاقي فيها الرجل طوائف من امم مختلفة الاجناس متباعدة البلاد .

ولا يسعني المقام أن أسوق شواهد من عناية علمائنا بالرحلة لأمثال هذه الاغراض النبيلة ، وأكتفي بأن أسوق على هذه الغاية قصة جابر بن عبد الله الانصاري ، ذلك أنه سمع وهو بالمدينة أن عبدالله بن انيس بالشام يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ فاشترى بعيراً ثم شد رحله وسار الى الشام فسمع الحديث من عبدالله وقفل راجعاً الى المدينة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المثبطات عن الرحلة وعلاجها

لاأريد من المثبطات عن الرحلة العوائق التي ليس في استطاعة الشخص علاجها ، كفراغ يده من نفقات السفر وكقيامه على اسرة إذا فارقها وقعت في حاجة ونكد من العيش، بل أريد من المثبطات ما يعرض للنفوس الضعيفة ويغلب على أمرها ، ولولا ضعفها لما كان له عليها من سبيل مثل استعظام مفارقة من يعز عليه من أقارب أو أصدقاء ، سئل إمام الحرمين وهو على المنبر لماذا كان السفر قطعة من العذاب ؟ فقال : لان فيه فراق الأحبة .

وفي الناس من يذكر ما في الرحلة من متاعب بدنية فيحجم عنها ، وأكثر من يعرض لهم هذا المثبط اولئك الذين ينشأون في ترف وانحلال عزيمة فيخشون ان يفوتهم ما اعتادوا من الرفاهية ولو زمناً قليلاً ، ومنهم من يترك الرحلة حيث تضطره لركوب البحر فرقاً من أهواله ، عزم الحافظ ابو الوليد هشام الوقشي على ركوب البحر الى الحجاز فهاله ذلك فقال :

لا أركب البحر ولو أنني ... ضربت فيه بالعصا فانفلق
ما إن رأت عيني أمواجه ... في فرق إلا تناهى الفرق

وقد يحجم الرجل عن الرحلة مخافة أن ترمي به بين أقوام لا يعرفون حسبه وأدبه فيلاقي من مرافقتهم أو معاشرتهم ما لا يليق بمنزلته ويرتاح له ضميره وقد أشار إلى ما يعرض للرجل من هذه الآلام النفسية الرحالة ابن جبير إذ قال :

لا تغترب عن وطن ... واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا ... ما فارق الأصل ذوى

وأشار يحيى بن حكم المعروف بالغزال إلى أن الغربة سبب لفقد جانب من العزة . فقال :

فصمصام عمرو حين فارق كفه ... رموه ولاذنب لعجز المضارب
وما عزة الضرغام إلا عرينه ... ومن مكة سادت لؤي بن غالب

وتألم الرحالة بن سعيد الأندلسي حين نزل ببعض بلاد الشرق وناداه بعضهم باسم المغربي فقال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأنادي مغربياً ليثني لم أكن للغرب يوماً أنسب
نسب يشرك فيه خامل ونبيه أبن منه المهرب
أتراني ليس لي جد له شهرة أو ليس يدري لي أب

وعلاج أمثال هذه المثبطات الناشئة عن ضعف النفس وقلة تمرينها على احتمال المكاره أن يذكر الرجل ما تأتي به الرحلة من ثمرات علمية أو أدبية عامة أو خاصة، فإذا وثقت نفسه بنيل غايتها وحسن عاقبتها سهل عليها كل صعب واستهانت بكل خطر، قال عبد الملك بن سعيد في وصية ابنه علي بن سعيد عندما عزم على الرحلة إلى الشرق :

وكل ما كابدته في النوى إياك أن يكسر من همتك

وعزم المأمون الخروج الى بعض الحروب فوقفت له جارية ممن شغف بهن ورغبت اليه ألا يخرج فقال لولا قول جرير :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

لما خرجت.

وأذكر أن أبا بكر بن العربي الاندلسي الذي قضى في رحلته ثمانية أعوام أورد في بعض كتبه مسألة من مسائل الخلاف حررها وهو في العراق وقال: لو لم أظفر في رحلتي إلا بهذه المسألة لكفتني، على أن ابن العربي قد لقي في رحلته نصباً في البحر ومخاوف في البر (١)

ليذكر الراحل أن ثمرة الرحلة لذيذة باقية، وأن تلك الآلام النفسية والمتاعب البدنية زائلة، قال القاضي محمد بن عيسى أحد الراحلين من الاندلس الى الشرق بعد أوبته :

كأن لم يكن بين ولم تك فرقة إذا كان من بعد الفراق تلاقي
كأن لم تؤرق بالعراقين مقلتي ولم تمر كف الشوق ماء آماقي
ولم أزر الاعراب في جنب أرضهم بذات اللوى من رامة وبراق
ولم أصطبح باليد من قهوة الندى وكأس سقاها في الأزاهر ساق

(١) أنظر كتاب القواصم والعواصم له.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجاء في كتب الادب أشعار يرد ناظموها على من يحاول تثبيطهم عن الرحلة كما قال بعضهم :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا فقلت الى ذاك المقام أطوف

وقال ابن دراج :

ألم تعلمي أن الثواء هو النوى وان بيوت العاجزين قبورُ

وربما كان المثبط عن الرحلة إعجاب الرجل بوطنه إذ يخطر له انه لا يرى في غير وطنه أحسن مما يرى فيه كما قال أبو القاسم عامر بن هشام :

يا من يزين لي الترحال عن بلدي كم ذا تحاول نسلا عند عنين

وأين يعدل عن أرجاء قرطبة من شاء يظفر بالدنيا وبالدين

وإعجاب الرجل بوطنه واعتقاده انه أجمع لمطالب الحياة قد يمنعه من رحلة الانقطاع ولا ينبغي أن يمنعه من الرحلات المحدودة بزمان .

وترى من الادباء من يمتلئ قلبه حبا لوطنه ولكنه يتغلب على هذه العاطفة ويذكر الداعي الى الرحلة فتطمئن اليها نفسه كما قال ابن سعيد لما خرج من حدود افريقية :

رفيقيّ جاوزنا حدود مواطن صحبنا بها الأيام طلقاً محياها

وما أن تركناها لجهل بقدرها ولكن ثنت عنا أعنة سقياها

فسرنا نحث السير عنها لغيرها الى أن يمن الله يوماً بلقياها

فوائد الرحلة

إذا درسنا تاريخ العلماء والأدباء الذين رحلوا عن أوطانهم ووجهنا النظر الى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد عادت عليهم أو على قومهم أو على الاوطان التي نزلوا بها ، وجدناها من الاهمية بمكان يدعو الى ان تعد في مقدمة وسائل الرقي والتهذيب .

ماذا يستفيد الرجل من الرحلة

من أنفس ما يكسب الرجل في رحلته أن يعلم ما لم يكن يعلم ، كم من عالم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يبلغ المقام الذي يشار اليه بالبنان إلا بالرحلة . والباحث في تراجم العلماء يقف على أسماء رجال كثيرين بلغوا في العلم الذروة ، وإنما بلغوها بما قاموا به من رحلات تقلبوا بها في مدن زاخرة بالعلوم ولاقوا بها كثيراً من اكابر العلماء مثل الامام الشافعي والحافظ بن عساكر و أبي الوليد الباجي وأبي بكر بن العربي وأسد بن الفرات ، ولابن خلدون في مقدمته التاريخية فصل افتتحه بقوله : أن الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعلم وختمه بقوله : فالرحلة لا بد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقي عن الرجال .

وللرحلة أثر في سمو الفكر إذ يأخذ الرجل فيها من التجارب ما لا يأخذه وهو مقيم في بلد لا يخرج منه الى غيره ، وقد يكنون بها عن قوة العقل وحسن التصرف في الامور ، وانظر الى بديع الزمان الهمذاني حين أراد الدلالة على كمال عقله كيف عبر عنه بركوبه ظهري البر والبحر ، إذ قال في كتاب كتبه الى القاسم العرجي : فإني وإن كنت في مقتبل السن والعمر قد حلبت شطري الدهر وركبت ظهري البر والبحر .

والرحلة أثر في تهذيب الطباع ورقي الآداب ذلك أن كثرة ما يلاقيه الرجل في السفر من المشاق يقوي في نفسه خلق الحلم والمداراة وقد قال بعض الحكماء للغريب :

إن ترمك الغربة في معشر تطابقوا فيك على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم

ولا يخلو الراحل متى كان بصيراً بمواقع العبرة أن يلاقي رجالاً ذوي آداب سامية فيقتبس من آدابهم ما يزداد به أدباً على أدبه ، وهذا ابن وهب رحل من مصر وتلقن العلم بالمدينة عن الإمام مالك وقال : تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه ، وأقام يحيى بن يحيى بن بكير عند مالك بعد ان فرغ من سماع الحديث عنه وقال : إنما أقمت لاستفيد من شمائله .

وقد ينشأ الفتى في نبوغ ويضيق بلده عن انظاره الواسعة فيرحل الى مدينة تكون أوسع مجالاً للاراء الخطيرة فتعظم مكانته ويكثر الانتفاع بحكمته ، ولولا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرحلة لما عظم شأنه ، ولما كثرت ثمرات نبوغه ، أذكر أن الشيخ عز الدين ابن عبد السلام مر عند خروجه من الشام بالكرك فتلقاه صاحبها وسأله الإقامة عنده ، فقال له الشيخ بلدك صغير عن علمي ، وتوجه إلى القاهرة . وأسوق شاهداً على هذا أن القاضي يوسف بن أحمد بن كَج بلغ في العلم مرتبةً كبيرةً ، قال له بعض من لقيه : يا أستاذ الاسم لأبي حامد الغزالي والعلم لك ، فقال القاضي : ذاك رفعته بغداد وأنا حطتني الدينور .

وقد تكون رحلة العالم أو الأديب من أسباب ظهور علمه أو أدبه وانتشاره في الآفاق ، قال الأديب أبو بكر المعروف بابن بقي :

ولي همم ستقذف بي بلاداً ... تأث إما العراق أو الشآما
لكيما تحمل الركبان شعري ... بوادي الطلح أو وادي الخزامى
وكيما تعلم الفصحاء أني ... خطيب علم السجع الحماما
وقد أطلعتهن بكل أرضٍ ... بدوراً لا يفارقن التماما

وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن الازدياد من العلم أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة ، فيرحل حيث يلقى كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة : رحل القاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى مصر ، ونبه على سبب رحلته فقال :

سلام على بغدادَ في كل موطن ... وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قِلىً لها ... واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليَّ بأمرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكذلك قال أبو سعد النيرماني :

فقد سرت في شرق البلاد وغربها ... وطوفت خبلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ... ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلاً ... وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان حبك صادقاً ... لبغداد لم ترحل فكان جوابيا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يقيم الرجال المؤمنون بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا

ومما يظفر به الرجل الفاضل في رحلته أن يتخذ في البلاد التي ينزل بها أصدقاء يغتبط بصداقتهم ، والصداقة الخالصة من ألذ ما يتمتع الانسان به في هذه الحياة ، وكتب الأدب مملوءة بالرسائل والقصائد التي دارت بين علماء وأدباء اختلفت مواطنهم وهي عامرة بروابط صداقات ناشئة بوسيلة الرحلة ، وهذا ابن خلدون ارتبط بصداقات كثيرة من علماء البلاد كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك ، وجرت بينه وبينهم مراسلات ، وأذكر من قصيدة بعث بها اليه ابن زمرك بعد نزوله مصر قوله :

بعيشك خبرني ولا زلت مفضلاً أعندك من شوق كمثل الذي عندي

ومثل الحافظ بن عساكر رحل إلى بلاد العجم بعد بلاد العرب وأذكر من قصيدة بعث بها إلى صديقه أبي سعد السمعاني قوله :

أنسيت ثدي مودة بيني وبينك وارتضاعه

ماذا يستفيد قوم الرجل من رحلته

قد تحظى البلاد بالعلم بعد انقطاعه عنها ، أو تقوم سوقه فيها بعد خمولها ، والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم ، ثم يعودون وقد امتلأوا مما اغترفوه من العلوم والفنون ، وقد بلغت الحالة العلمية بالأندلس بعد عودة أبي الوليد الباجي من رحلته الشرقية منزلة أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود وارتحل أبو القاسم بن زيتون التونسي في أوساط المائة السابعة إلى المشرق فبرع في المعقليات والنقليات ورجع إلى تونس فأمتعها بعلمه الكثير وأسلوب تعليمه البديع .

ويرحل العالم أو الأديب من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً ويتحلى بأدب سني وينزل بين جماعات من بلاد مختلفة فيرونه مثالاً لأهل العلم والأدب من قومه فيرتفع شأن قومه في أنظارهم ، هذا إلى ما يصفه لهم من محاسن قومه أو ينقله اليهم من ثمرات أفكارهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ماذا تستفيد البلد ممن يرحلون اليها

يرحل العالم أو الأديب ، وينزل ببلد ، فيبذر بها متى كانت في حاجة إلى أمثاله — علماً أو أدباً ، ومن ذا ينكر أن بلاد الاندلس قد استفادت من العلماء الذين رحلوا اليها من الشرق ، مثل تاج الدين بن حموية السرخسي ، وأبي علي القالي ، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك وابن السبكي ، واستفادت مصر من أمثال أبي حيان وابن خلدون .

وهذا المعري يحمد السفر الذي جاء بالقاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى المعرة فقال :

والمالكي بن نصر زار في سفر ... بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تحدث أحيا مالكاً جدلاً ... وينشر الملك الضليل إن شعرا

وتفقه البربر في علوم الدين عن عشرة من فقهاء التابعين بعثهم عمر بن عبد العزيز لهذا الغرض خاصة .

ونرى في تراجم كثير من العلماء الراحلين أنهم كانوا يلقون في البلاد التي ينزلون بها دروساً أو يدرسون بها علوماً يتلقاها عنهم بعض أهل العلم .

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها .

أثر الرحلة في تنمية العلوم

للرحلة فضل في نماء العلوم واتساع دائرتها ، وكم من كتاب بعد في علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة ، ذلك أن أسد بن الفرات الراحل من القيروان إلى الشرق ورد مصر بعد أن تلقى العلم في الحجاز والعراق ، وألقى على ابن القاسم أسئلة يطلب الجواب عنها على مقتضى مذهب الإمام مالك ، وجمع تلك الأسئلة وأجوبتها في كتاب كان يسمى الأسدية ، ثم رحل ضحنون بن القيروان بالأسدية إلى ابن القاسم ، وعرضها عليه ، وهذبها ، وأضاف اليها مسائل أخرى وصارت تسمى المدونة ، وهي المشار اليها بقول بعض أهل العلم :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أصبحت فيمن له علم بلا أدب ومن له أدب عارٍ عن الدين
أصبحت فيهم فقيد الشكل منفرداً كبيت حسان في ديوان سحنون

وبيت حسان الذي لم يرد في المدونة غيره من الشعر قوله :

وهان على سراة بني لؤيّ حريق بالبويرة مستطير

ومن فضل الرحلة أنها حفظت جانباً عظيماً من التاريخ ، حفظته الكتب التي بودعها مؤلفوها ما شاهدوه في أسفارهم من وقائع وأحوال ، مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة العبدري ورحلة ابن جبير ورحلة خالد بن عيسى البلوي وغيرها ، فانا نرى في هذه الرحلات أشياء لا نجدها فيما بين أيدينا من كتب التاريخ .

أثر الرحلة في ثراء الأدب

للرحلة أثر في ثراء الادب لا يقل عن أثرها في ثراء العلم ، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلا حين يعزم على الرحلة لالقائها بين يدي ملك او وزير او وجيه مثل قصيدة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل الى منجاتها درسا

فان صاحبها ابا عبدالله بن الابار الراحل من الاندلس قد نظمها استنجاداً لأمير تونس وألقاها بين يديه .

ومما يرجع الفضل فيه للرحلة ذلك الشعر الوارد في التشوق الى الوطن او لاهل والاخوان ، ومن هذا الباب قول محمد بن يوسف الدمشقي يتشوق الى دمشق وهو ببلاد الروم :

بعاد يزيد الجوى والحنينا وبين يعلم قلبي الانينا
فراق أذاب الحشا أدمعا فأجرى بصافي الدماء العيونا

الى ان قال:

وجاد الحيا أربعاً بالشآم وسلم صحباً بها قاطنينا
رحلنا فما تابعتنا القلوب وصرنا فظلت لديكم رهونا

واذكر بهذه المناسبة ان استاذنا المرحوم الشيخ سالم ابا حاجب كان قد سافر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى ايطاليا وبعث برسمه الى بعض اصدقائه في تونس وكتب عليه البيتين:

لما شكت شط النوى روحي التي ابقيتها عند الاحبة بالوطن
ارسلت تمثالي لها[1] بوّاً عسى تسلو فلا تبغي التحاقاً بالبدن

أثر الرحلة في تعارف الشعوب

لا ينزل الرجل الفاضل بوطن إلا التقى بطائفة من فضلائه ، والشأن أن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية ، ثم إذا عاد الى قومه ، وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها ، فيكون كل من الشعوب التي رحل منها أو نزل بها ، على خبرة من حال الشعوب الاخرى .

وقد نبهنا على أن الرجل الطيب السريرة ، يتخذ في كل وطن أصدقاء ، وهذه الصداقات تعد فيما يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة ، وتعارف الشعوب بوسيلة العلماء والادباء ، يثير في نفوسهم عواطف الائتلاف والاحترام .

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة عقد رابطة التعارف والتعاطف بين الشعوب ، فعلى المستطيعين منا أن يخصوا البلاد الشرقية بجانب عظيم من رحلاتهم ولو وجدوا في سبيل ذلك مشاق فوق ما يلاقونه في سبيل الرحلة الى البلاد الاجنبية .

أدب الرحلة

الآداب السنية كمال الانسانية ، فيجب على الانسان الاحتفاظ بها في وطنه ، كما يحتفظ بها في غير وطنه ، ورأينا بعض الحكماء يوجهون الى الغريب أو من رام الغربة عناية خاصة ، فيؤكد عليه في الاحتفاظ بالآداب الشريفة ، فقال بعضهم : يا غريباً كن أديباً ، ومن هذا القبيل وصية عبد الملك بن سعيد الاندلسي لابنه علي عند عزمه على الرحلة الى بلاد الشرق ، تلك الوصية التي يقول فيها :

اودعك الرحمن في غربتك مرتقباً رحماه في أوبتك
فلا تطل حبل النوى إنني والله أشتاق الى طلعتك

(١) البو جلد الحوار يحشى تماماً او تبناً فيقرب من ام الفصيل فتعطف عليه ، فتدر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال:

فليس يدرى أصل ذي غربة وإنما تعرف من شيمتك

ونبهه لآداب سامية فقال:

وامش الهوينا مظهراً عفة وابغ رضا الاعين عن هيئتك
وكل ما يفضي لعذر فلا تجعله في الغربة من إربتك
ولا تجادل حاسداً ابداً فانه أدعى الى هيبتك

وقال:

وانطق بحيث العيّ مستقبح واصمت بحيث الخير في سكتتك

ومن أدب الراحل أن ينصف البلاد التي ينزل بها فيذكر محاسنها، ويغتبط بما يلاقيه بها اهلها من احتفاء ومؤانسة. ورد تاج الدين بن حموية السرخسي بلاد المغرب، فسأله سلطان المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن قائلا: أين هذه البلاد من بلادك الشامية؟ فقال السرخسي: «بلادكم حسنة أنيقة، وفيها عيب واحد، فقال السلطان: ما هو؟ قال: إنها تنسي الاوطان.»

وممن قاموا على هذا الادب الجميل العلامة المقري صاحب كتاب نفح الطيب، فقد نظم في الثناء على دمشق أشعاراً، وتمثل فيها بأشعار، ومما أنشده قول شمس الدين الأسدي:

إذا ذكرت بقاع الارض يوماً فقل سقيا لجلق ثم رعيا
وقل في وصفها لا شيء سواها بها ما شئت من دين ودنيا

وأختم هذه المحاضرة بأبيات خطرت لي معانيها عند ما نزلت دمشق، واني لست بشاعر ولكنني درست علم العروض، فأستطيع أن أقول كلاماً موزوناً، والى حضراتكم هذه الابيات:

زارها بعد نوى طال مداها فشفا قلباً مُعنّىً في هواها
راح نشوان ولا راح سوى أن رأى الشام وحياه شذاها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نظرة في ساحها تذكره كيف كان العيش يحلو في رباها
ما شكا فيها اغترابا وإذا حدثته النفس بالشكوى نهاها

* * *

من يحث العيس في البيد الى بَرَدى يحمد للعيس سراها
فهنا قامت نوادي فتية تبلغ النفس بلقياهم مناها
أدب يزهو كزهر بهج أرشفته السحب من خمر نداها
خُلُق لو نصح الخودَ به ناصح لاتخذت منه حلاها
ملأوا جلق أنسا فأرى ليلها طلق المحيا كضحاها
شدّ ما لافوا خطوبا فانتضوا مرهفات العزم طعنا في لظاها

* * *

عزة الامة في نشء إذا نشبت في خطر كانوا فداها
وجناحا فوزها استمساكها بهدى الله وإرهاف قناها
هي عين والهدى إنسانها فاذا ما فسقت لاقت عماها

* * *

رتّل الذكر مليا تره بغرس الحكمة أو يدني جناها
أطلق الافكار من أصفادها فمضت ترعى الثريا وسهاها
خض علوم الكون أحقابا وسر في سماها إن تشأ أو في ثراها
لا ترى في الدين إلا مُغربا بحلاها أو مُزيحا لقذاها

* * *

ذكّرونا سلفا قاموا على سيرة غرّاء والدهر طواها
أمة يذكي التقى غيرتها مثلما يذكي الندى نار قراها
شرف لو آنسته الشمس في افقه الأعلى لظنته أباها

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو بجدي مجد أسلاف إذا غرقت أجفان خلف في كراها
امة تلهو بذكرى تالد عن طريف لم ترم عهد صباها

* * *

فابعثوها هما تسمو كما سمت الجوزاء تزهو في سناها
ما الفخار الحق إلا نهضة أحكم الإيمان والعلم عراها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net